خامسًا: السرد: (١)

هو الكيفيَّة التي تُروى بها القصَّة وهو كذلك طريقة عرض الحوادث في القصَّة، أو هو نقل حادثة من صورتها الواقعة في الواقع إلى صورةٍ لغويَّة. ويتمُّ سرد القصَّة بطرق عِدَّة أوَّلها طريقة السرد الغير مباشرة ويتمُّ بلسان بطلٍ من أبطالها ويُستخدم عندئذ ضمير المُتكلِّم ويعتمدُ فيها على تصوير الشخصيّات التي يتحدَّثُ عنها من خلال وجهة نظره الخاصَّة فيُحلِّلها تحليلاً نفسيًّا مُتقمِّصًا شخصيَّة البطل، ويُطلَقُ على هذه الطريقة (الترجمة الذاتيَّة) ويكثرُ هذا الأسلوب في قصص محمود تيمور، وميخائيل نعيمة، وعِيبَ على هذه الطريقة أنّ القارئَ يتوهَّمُ بأنَّ أحداث القُصَّة ليست سوى تجربة ذاتية لمؤلِّفها.

أمَّا الطريقة الثانية في طريقة السرد المباشر، وفيها يقصّ الكاتب الأحداث ويُحلِّلُ الشخصيَّات تحليلاً عميقًا فيعرض لتصرّفاتها ويصف بالدِقَّة أحساساتها وعواطفها، وينفذ إلى أعماق تفكيرها ويكشف عن صراعها.

ويعتمدُ بعض الكُتَّاب طريقةً ثالثةً للسرد، وهي الاستفادة من الوثائق والرسائل في معالجة مشاكل قصصهم وموضوعاتها وهذا يعني أنَّ الكاتبَ يستثمرَ التاريخ استثمارًا جيِّدًا في عرض موضوعاته وعلى الرغم من بعد هذه الطريقة من استخدام الواقع، إلاّ أنَّ الكثير من الكُتّاب قد يلجأ إليها ونجح أن يختار التاريخ مصدرًا من مصادر قصصه لما فيها من أبعاد إنسانيَّة وقيم عالية روحيَّة وأخلاقيَّة.

ويُعَدُّ جرجي زيدان من أكثر الكُتّاب الذين وظَّفوا السرد التاريخي مثل أحمد ابن طولون والأمين والمأمون، وينبغي على السرد التاريخي استثمار قدرٍ كبير من الطاقة الخياليَّة.

مقولة هيئة القص[١]:

تُميِّزُ النظريَّاتُ الحديثة بين راوٍ وكاتب، فالراوي هو وسيلة، أو أداة تقنيَّة، يستخدِمُها الكاتب ليكشِفَ عن عالم قصَّتهِ، أو ليبُثَّ القصَّةَ التي يروي. ويختبئُ

---

(١) اخذ مبحث الحبكة والسرد من كتاب دراسات في الادب العربي الحديث النثر : ٦٥-٦٨ .

(٢) أخذ هذا المبحث من كتاب (تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي) يمنى العيد، بيروت، ١٩٩٩م: ٨٩ – ٩٩ .

الكاتبُ خلف الراوي. لقد أمكنَ لكُتَّاب الرُواية أنْ يتفنَّنوا في استخدام مفهوم الراوي، وكثيرًا ما لجأَ الكُتَّاب الرُوائيُّون إلى تنويع الراوي في العمل الروائي الواحد وفق ما يقتضيهِ سياق السرد، كأنْ يتنزَّلُ الراوي الذي يروي بضمير الأنا مكانه، في مفصلٍ ما من مفاصل العمل الروائي، إلى الراوي الشاهد أو كأنْ يتحوَّل هذا الراوي الذي يروي بضمير الأنا، من راوٍ حاضر يعرفُ أمورًا كثيرة (لأنَّهُ معنيٌّ بها) إلى مُجرَّد شاهدٍ ينقلُ فقط ما يقع عليه نظرُهُ. وفي ما يأتي نعرضُ لكلِّ نوعٍ من أنواع الرواة:

أ – الراوي بضمير الـ (أنا):

هو عادة بطل يروي قصَّته، لكن هذا الراوي ليس مع مسافة الزمن، هو تمامًا البطل؛ ذلك أنَّ الراوي هو من يتكلَّمُ في زمنٍ حاضر عن بطلٍ كأنَّهُ هو الراوي وقد وقعتْ أفعالُهُ في زمنٍ مضى، أي لئن كانَ الراوي هو البطل فإنَّ ثَمَّةَ مسافة زمنيَّة تنهضُ مع السرد بينهما، تنهضُ هذه المسافةُ بين ما كانه الراوي وما غداه البطل أو بين البطل الشخصيَّة (زمن ماض) والراوي (زمن حاضر) إنَّ المسافة الزمنيَّة هي مسافة التحوُّل، وإذ يصير البطل الشخص راوية، لا يعودُ الراوي هو الشخص (البطل) بل قل إنَّ الراوي الذي يروي هو الذي يخلقُ من شخصهِ، الذي كانَ والذي يعيد النظر فيه الآن بطلًا. الرواية بهذا المعنى ليست – كما قد يتوهَّمُ البعض– سيرةٌ ذاتيَّة بل هي سردٌ يستخدم تقنيَّة الراوي بضمير الـ(أنا) ليتمكَّنَ من ممارسة لعبة فنية تُخوِّله الحضور وتسمح له التدخُّل والتحليل بشكلٍ يولِّد الإقناع.

ب – الكاتب الذي يعرف كلَّ شيء أو كلّي المعرفة:

لعلَّ القارئَ، يُلاحظُ أنَّنا استعملنا هنا كلمة الكاتب بدل الراوي، وهو استعمالٌ واعٍ ومقصود؛ لأَنَّ (الراوي) يظهرُ هنا بأنَّهُ هو الروائي، ونحنُ لا ننكر أنَّ من يكتبُ هو دائمًا الكاتب بل تعني أنَّ علاقةَ (الراوي) هذا بما يروي ليستْ مُبرَّرةً هنا فنِّيًا أو قُل إنَّ الروائي الكاتب لا يستخدم في سردهِ هنا تقنيَّاتٍ تُمكِّنهُ الخفاء خلفَ راوٍ يتوسّطهُ أو أنَّهُ لا يُحسِنُ الخفاء خلف الشخصيَّات.

يروي الراوي هنا بضمير الغائب (هو) وهذا يعني اصطلاحًا أنَّهُ راوٍ غير حاضر ولكن الراوي على الرغم من اتِّخاذهِ صفة (عدم الحضور) يتدخَّل في سردهِ (يروي من الداخل) وهذا ما يجعلُنا نتساءلُ: كيف يمكنُ لراوٍ غير حاضر يروي من

الداخل ؟ لابُدَّ إذن من تسويغٍ فنّي يُخوِّلهُ الظهور أمامنا بمظهر العارف، أو بمظهر الذي يرى ويروي أو يسمع ويرى أو لابُدّ من وسيلةٍ فنّيةٍ تخفيه إذ يسرد خلف الشخصيَّات وإلَّا انكشفَ تدخُّلهُ وبانَ أنْ من يروي هو الروائي (ولأنَّه روائي) يعرف كلَّ شيء إذ ذاك يصعبُ على القارئ تصديق ما يقوله.

ج – الراوي الشاهد:

الراوي الشاهد هو راوٍ حاضر لكنَّهُ لا يتدخَّل، لا يُحلِّل، إنَّه يروي من الخارج، عن مسافةٍ بينه وبين ما يراه، أو مَنْ يروي عنه، مثل هذا الراوي بمثابة العين التي تكتفي بنقل المرئي في حدود ما يُسمَحُ لها النظر، وبمثابة الأُذُن التي تكتفي أيضًا بنقل المسموع في حدود ما يسمح به السمع، وظيفة هذا الراوي هي التسجيل، أي أنَّ وظيفته أقربُ إلى وظيفة الآلة، إنَّه تقنية آليَّة.

مفهوم الراوي الشاهد مُتأثِّر بإنجازات التكنولوجيا الحديثة التي أفادَ منها التصوير السينمائي، وأدَّى ذلك إلى التركيز على المُونتاج أو عمليَّة تركيب الصور.

د – الراوي الذي يروي من الخارج – غير حاضر:

كأنَّ الروائي هو هنا الذي يروي، لكنَّهُ ليس كلِّي المعرفة، لذا نراهُ يبحثُ عن وسائل تخوِّلهُ رواية ما يروي، أو تُخوّلهُ الصلة بما يروي لكن دونَ تدخُّلٍ منه فيما يروي الروائي هنا من على مسافة بما يروي فيبقى خارج ما يروي، ما يرويه من أحداث لم يقع في حضورهِ [وهو ليس شاهدًا على ما يروي] لذا فهو قد لا يروي من الذاكرة كما أنَّهُ ليس شاهدًا على ما يروي، ليس عينًا على ما تشهد وتروي، ما يرويهِ هو أحيانًا ما رواهُ آخرون أو ما سمعه من آخرين، وهو بهذه الوسيلة يسعى لأنْ يكون مُقنعًا، ثمَّة قنوات تصِلُهُ بما يروي وتجعلهُ يتحاشى مساوئ الروائي كلِّي المعرفة.

يلجأ الروائي هذا أحيانًا إلى تركِ الخبر غير المُؤكَّد، يتركُهُ غير محسوم ويتحاشى تحليل ظاهرات التعبير النفسيَّة التي تبديها بعض الشخصيَّات، أو التي ترتسمُ على وجهها أو تظهرُ في سلوكِها، فلا يدَّعي النفاذ إلى دواخل النفوس، ولا يتطلَّع لنبش دوافن القلوب، بل يلجأ إلى تأويل هذه الظواهر وهو إذ يفعلُ يُعدِّد التأويل، أو يتركُ دلالاته للاحتمال فيترك أمر الخيار فيه للقارئ.

سادسًا: الأسلوب أو الحوار:

أسلوب القصَّة، هو الطريقة التي يستطيعُ بها الكاتب أنْ يصطنعَ الوسائلَ التي بين يديه لتحقيق أهدافه الفنية كالحوادث والشخصيات والبيئة وغيرها، ويتألَّف الأسلوب من مجموعة من العناصر أهمُّها الألفاظ والتراكيب والصور والأخيلة وكذلك الانسجام بين المعنى والألفاظ[٢]، ولا يحكم على جودة الأسلوب وقوَّته إلا من خلال الصدق الفنِّي هذه العناصر مُجتمعة ولا يتمُّ كمالُ هذا الأسلوب أو جودته إلاَّ من خلال الذي هو صدق المشاعر والأحاسيس، ولكلِّ كاتب طريقته الخاصَّة في اختيار الكلمات وترتيب الجمل وتنسيق الحوادث.

ويحتلُّ الحوار مكانًا بارزًا في الأسلوب، وذلك لأنَّه يستعمل في تطوير الحوادث ويُحقِّق الصلة القويَّة بين هذه الحوادث وبين الشخصيَّات التي يمنحها حرارةً وصِدقًا وقد لخَّص أحدُ الباحثين صفات الحوار بمجموعة من المسائل هي اندماجه في صلب القصَّة وتحقيقه للعنصر الدرامي ودوره في رسم الشخصيَّات والكشف عن مواقفها من الحوادث ومن ذلك يكون الحوار سلسًا وشيِّقًا مناسبًا للشخصيَّة والموقف وبعده عن الثرثرة والسخف سعيًا إلى الترويح عن النفس ورفع الملل عن القارئ.

ومن أخطر المسائل التي تتصل بالحوار هي أسلوبه وأداؤه بالفصحى أو العاميَّة، فالعاميَّة لا ينبغي أنْ تدخُلَ في الأسلوب القصصي إلا في المواقف الحواريَّة، ولكن أكثر الكتَّاب يلجأون إليها في الحوار، لتُضفي عليه حيويَّةً وواقعيَّةً، وهناك كُتَّاب يُؤثِرونَ أنْ يُنطِقوا الشخصيَّات في مواقف الحوار والمناقشة بلهجتهم الطبيعيَّة الخاصَّة، ومنهم من ينوبون عن شخصيَّاتهم في الحديث ولا يُبالونَ أكانَ هذا الحديث صادقًا مُعبِّرًا أو مُفتَعلاً وهناك فئةٌ من الكُتّاب تُؤثِرُ استعمال العاميَّة المُفصحة أو الفُصحى المُبسّطة، ومنهم المازني ونجيب محفوظ[٣].

---

(٣) الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره: ٣٥٠ .